

المحاضرة الثالثة

عوامل التغير الاجتماعي:

إن تحديد تصنيف موحد للعوامل التي تتسبب في إحداث التغير الاجتماعي، يظل إشكالية عويصة وأمر في غاية الصعوبة والتعقيد، وذلك بسبب مشكلة التداخل بين هذه العوامل ومشكلات التعليل ومشكلة التصنيف لهاته العوامل التغير الاجتماعي، والواقع أن مسألة العوامل ، في حد ذاتها ليست خطأ علميا إنما في طريقة استخدامها، وفي الأهداف الأيديولوجية الكامنة وراءها، وبالمنهج الذي يوجهها، فإذا كان هذا المنهج ميتافزقيا يمكن فعلا أن نقع في محذور "نظرية العوامل"، أما إذا كان المنهج جدليا، فإن نظرية العوامل تصبح العكس أمرا ضروريا " لا غنى عنه لفهم عملية التغير الاجتماعي المعقدة.

من هنا، تتوقف عملية التغير الاجتماعي على تفاعل عوامل عدة، مثل التكنولوجي والاقتصادي والثقافي والسياسي والأيديولوجي، وليس لعامل واحد ترجيح أو أفضلية على العوامل الأخرى في حد ذاته، من كل ذلك يمكن تحديد التصنيف على النحو التالي :

- العامل الأيديولوجي (الفكري).
- العامل الاقتصادي.
- العامل التكنولوجي أو التقني.
- العامل الديموغرافي (السكاني).
- العامل الأيكولوجي (البيئي).
- العامل البيولوجي أو العنصري.
- العامل الثقافي.
- العامل الديني.

1/العامل الأيديولوجي أو الفكري : الأيديولوجية تعني: “نسق من المعتقدات والمفاهيم يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية مُعقَّدة من خلال منظور يوجَّه ويُبسِّط الاختيارات السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات، ويرى أنصار العامل الأيديولوجي أنَّ وجود أو

ظهور مذاهب فكرية مُتعدّدة في المجتمع تؤثر في أساليب حياة أفراده، وفي عملية التغيّر الاجتماعي فيه.

2/ العامل الفيزيقي:

ثمة علاقة بين الإنسان و البيئة ، بل انه إذا كان الإنسان يؤثر في البيئة المحيطة فإنها تؤثر فيه، وتحدث البيئة أثرا كبيرا في تطور الحياة الاجتماعية و نظمها، فالناس في كل مكان عليهم أن ينظموا أنماط حياتهم وفقا لظروف الطقس و تقلباته. كما أن البيئة الفيزيكية هي التي تحدد أشكال النشاط الاقتصادي التي ينخرط فيها الناس، زراعة أم رعيًا أو تجارة . ولقد اتضح ذلك بجلاء في الحضارات القديمة فقد ظهرت ثقافات الجمع و الالتقاط في المناطق الخصبة، كما ظهر الرعي في المناطق الصحراوية القاحلة وفي ضوء ذلك يفترض أن تترك البيئة الفيزيكية تأثيرا بالغًا على مستوى التغير الاجتماعي وطبيعته في أي مجتمع ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أن العوامل الفيزيكية هي العوامل الأساسية الوحيدة في إحداث التغير، فقد أثبت التاريخ أن بعض التغيرات في البيئة الفيزيكية يمكن أن تؤدي إلى حدوث تغيرات اجتماعية قد تكون بعيدة المدى في بعض الحالات الاستثنائية كما حدث في الدول التي ظهر فيها البترول . فبالرغم من أن البترول قد اكتشف من خلال جهود بشرية إلا أن ارتباطه بالطبيعة قد أثر تأثيرا كبيرا على مسار التطور في المناطق التي اكتشف فيها .

لقد أحدثت الظروف البيئية الفيزيكية في حالة اكتشاف البترول تغيرا تقديما ملموسا ، ولكن ظروف بيئية أخرى قد تحدث العكس كما يحدث في حالة الكوارث الطبيعية كالزلازل

أو البراكين أو الفيضانات أو غيرها من الكوارث.¹ إن هذه التغيرات الطبيعية قد تؤدي إلى زوال مجتمعات بأسرها.

ونستطيع أن نحصر العوامل الفيزيكية التي قد تلعب دورا في إحداث التغير فيما يلي:

الحرارة، الرطوبة، الرياح ، الأمطار.

التصحّر مثلا: البترول ، الغابات ، المعادن، أو نفاذ هذه المواد.

¹ - دلال ملحس أستينية، التغير الاجتماعي و الثقافي، دار وائل ، الطبعة الثانية، عمان، 2008، ص46

ومن العلماء من فسر التغير الاجتماعي في ضوء العوامل الفيزيائية البيئية الطبيعية، وهي جميع الظواهر الفيزيائية التي ليست من صنع الإنسان وتشمل المناخ و الطقس ، ودرجات الحرارة ، و البرودة و الأمطار والجفاف و التربة وتوزيع الأرض و المياه، و ما في باطن الأرض من ثروات .

فقد أدى اكتشاف بعض موارد الثروة التي لم تكن معروفة من قبل المجتمعات المتخلفة، واستغلال هذه الموارد ، إلى ظهور آثار واضحة في حياة الناس ويؤدي ظهور أو استنفاد مصدر ما من مصادر الثروة الطبيعية في باطن الأرض يؤدي إلى تغيرات في لبيئة الاجتماعية فيؤثر في توزيع السكان، ونشأة المدن وفي حياة الناس⁽²⁾

3/ العامل الديموغرافي:

يقصد بالعوامل الديموغرافية حجم السكان و معدلات نموهم و هجرتهم و خصوبتهم إلى غير ذلك من العوامل الديموغرافية الأخرى، و الملاحظ أن حجم السكان على الكرة الأرضية في تزايد مستمر ، و تختلف معدلات الزيادة السكانية من بلد إلى آخر.

وينظر البعض إلى النمو السكاني باعتباره وسيلة من الوسائل الهامة في إحداث التغير الاجتماعي ، وذلك في ضوء النظرة التي تربط بين نمو السكان وتوفر القوى العاملة المولدة للثروة ، وفي هذه الحالة ينظر إلى العنصر البشري بوصفه عنصرا أساسيا من عناصر الإنتاج وتتقابل وجهة النظر هذه مع وجهة النظر التابعة من نظرية مالتوس والتي ترى في الانفجار السكاني نذير خطر.

وبهذا يكون النمو السكاني الهائل عنصرا مدمرا للتقدم، وباعثا للأشكال من التغير الاجتماعي غير المرغوب فيه، فالواقع و الوقائع تؤكد أن الزيادة السكانية خاصة في دول العالم الثالث تؤدي إلى خلق مشكلات كبيرة ، فهي ترهق الاقتصاد وتسهم في التقليل من نصيب الفرد من الدخل القومي، وتؤدي إلى اكتظاظ المدن بسكان عاطلين عن العمل.

وينقلنا ذلك مباشرة إلى الإشارة لدور الهجرة ، كمتغير ديموغرافي في التغير الاجتماعي، الحدث الدراسات إن النزوح السكاني من مجتمع معين يضيف إلى خلل سكاني يؤثر على أشكال النشاط الاقتصادي القائم، وإن قدوم جماعات كبيرة من المهاجرين إلى مكان أو مدينة ما يؤدي إلى ظهور مشكلات لا حصر لها داخل المدينة تتمثل بعلاقة هؤلاء المهاجرين بمكان المدينة من ناحية و بطبيعة حياتهم من ناحية أخرى³.

1 -حسين عيد الحميد، أحمد رشوان ، التغير الاجتماعي و المجتمع ، المكتب الجامعي الحديث، 2008، ص112
-دلال ملحسن أستينية، نفس المرجع السابق، ص48.³

ومن العلماء من يقول ويعتبر أن السكان فعال في حمل لواء التغير ، فحجمهم سواء كان بالزيادة أو النقصان ، وكثافتهم وتخلخلهم ، وزيادة المواليد أو نقصها ، ومعدلات الوفيات ، وحركة السكان سواء الداخلية والخارجية وعوامل الهجرة ، وتكوين السكان الجنسي والعمرى كل هذا يؤدي إلى حدوث تغيرات اجتماعية ، وذلك باعتبار العنصر البشرى هو العامل الفعال الذي يقع عليه حمل لواء التغير .

وتحدث هذه التغيرات تغيرات في معدلات التنقل الجغرافى و بناء النظم السياسية ، وتوزيع السلطة السياسية ، وتغيرات في حاجات و أفعال الناس ، وظهور نماذج جديدة من التنظيمات السياسية .

فزيادة عدد السكان يزداد نشاطهم ، و تتقدم الحضارة ، وتنشأ المدن ويزداد العمران ، وهذا يؤدي إلى تغير شامل في حياة الناس ، إذ يتحولون مثلا من الأعمال الزراعية إلى الأعمال الصناعية.....

ومن حيث التكوين العمرى ، نجد أنه إذا زاد عدد الشيوخ عن الشبان كان المجتمع محافظا متمسكا بالقديم ، و إذا زاد عدد السكان الشباب عن الشيوخ كان المجتمع مرنا يتقبل كل ما هو جديد.(4)

ولقد أعطى عالم الاقتصاد الإنكليزي "توماس روبرت مالتوس"(5) للعامل الديموغرافى دوار مخيفا في عملية التطور الاجتماعى ، حيث تصور أن نمو السكان إنما يتم على شكل متواليات هندسية 8 ، 4 ، 2 ... 4 ، 3 ، 2 ، 1 (إلخ). في حين يتم تزايد وسائل الغذاء وكميته على شكل متواليات حسابية فقط (11 ، 25 إلخ). أي أننا لو اعتبرنا سكان الكرة الأرضية "واحدا" لتضاعف هذا العدد خلال (إذا لم يعرقل) ، 2 : 251 تكاثره شيء ، وخلال قرنين من الزمن سوف تصبح النسبة بين عدد السكان ووسائل المعيشة (وانطلاقا من هذا التصور المغلوط والمتشائم معا ، فقد تصور "مالتوس" أن العالم مهدد بفيض السكان المطلق ، وبالتالي الصراع من أجل البقاء ، حيث سيهلك الضعفاء متنازلين عن أماكنهم لمن هم أقوى وأزكى وأصلح للبقاء منهم!!). وخلص من وراء هذه الدارونية الاجتماعية الفجة إلى عدد من الاستنتاجات غير الإنسانية ، وهذا أن كل ما يساعد على تقليل عدد السكان هو خير حتى لو كان الجوع أو المرض أو الحروب أو أي وسيلة أخرى غير إنسانية .

وخلص من وراء هذه الدارونية الاجتماعية الفجة إلى عدد من الاستنتاجات غير الإنسانية ، وهذا أن كل ما يساعد على تقليل عدد السكان هو خير حتى لو كان الجوع أو المرض أو الحروب أو أي وسيلة أخرى غير إنسانية .

1- عبد الحميد ، أحمد رشوان ، نفس المرجع السابق.

⁵ - Nordskog.S.E.: Social change Macgrow- Hill. comp-N.Y. 1989. p.16

4/ العامل البيولوجي:

يسمى الحتمية البيولوجية، لأنه يرجع التغيير إلى أسباب بعيدة عن تأثير الثقافة وتدخل الإنسان، ويعتبر أصحاب هذه المدرسة أن الوراثة "العنصر، أي العرق" هي سبب التغيير والتقدم الاجتماعي، جيلا بعد جيل.

إن أصحاب هذه النظرية يذهبون في ربطهم للعامل البيولوجي بأشكال التغيير الاجتماعي المختلفة إلى الحد الذي يؤكدون فيه أنها تؤثر في سير التاريخ، ولقد تلقفت النازية من هؤلاء فكرة تدرج الأجناس، وحاولت أن تقيم نظرية: "الجنس السيد" الذي يتصف بمواهب وراثية عالية تستطيع أن تغير وجه التاريخ.

ويعطي علماء البيولوجيا اهتماما كبيرا للتطور بالجانبين الوارثي والبيئي، وتبعاً لـ "داروين" فإنه إذا ما تغيرت الظروف أو الأحوال في بعض الأماكن التي يوجد الكائن الحي في بيئتها، فإن هذا التعديل يجلب معه تغييراً في الحاجات، وبالتالي في العادات والأفعال، مما يترتب عليه أن يكثر ويستمر في استعمال بعض الأعضاء عن الحد اللازم فتقوى وتنمو، على الأخص عند الكائن الصغير الذي لا يزال في طريقه للنمو. ومن جهة أخرى، يؤدي النقص المستمر في استعمال أي عضو إلى إضعافه بدرجة غير محسوسة ثم ينتهي الأمر إلى الضمور والاختفاء.

ولهذا فإن تأثير البيئة أو الوسط يعدل ببطء أشكال .. الأحياء عن طريق الظروف التي تفرضه هو بالذات.(6)

5/ العامل الاقتصادي : يُقصد به جميع النواحي المادية التي تُحيط بالمجتمع، أي البناء الاقتصادي بوجه عام ويرى أنصار هذا العامل وفي مقدمتهم كارل ماركس أن البناء الاقتصادي مسؤول عن التطورات والأحداث التاريخية وعن توجيه عمليات التغير الاجتماعي في المجتمع كذلك يرى هؤلاء أن أي تغير في البناء الاقتصادي يؤدي إلى تغير في البناء الاجتماعي، بمعنى أن أي تغير في شبكة العلاقات الاقتصادية يؤدي إلى تغير في شبكة العلاقات الاجتماعية.

وذلك انطلاقاً من فكرة العلاقة بين البناء التحتي للمجتمع والبناءات الفوقية فيه. وهكذا البناء الاقتصادي للمجتمع لا يحدّد فقط البناء الفوقي الكلّي بل ويُشكّله أيضاً؛ أي أنه يُشكّل التنظيم السياسي والقانوني والديني والفلسفة والعلم والأخلاق ذاتها. ويعتبر أشيل لوريا الإيطالي أحد أبرز مؤيدي فكرة تأثير العامل الاقتصادي في البناء الاجتماعي، وقد حاول في دراسته الاقتصادية للمجتمع الإيطالي عام 1881 أن يؤكّد الفكرة التي مفادها: إن الانكماش التدريجي في الأرض الحرّة هو العامل الحَكَم في التطور الاجتماعي.

وتعتبر العوامل الاقتصادية ذات تأثير بليغ في إحداث التغير الاجتماعي، حيث يرى ماركس أن عملية الإنتاج الاجتماعي تجعل الأفراد يدخلون في علاقات محددة معينة، تلك العلاقات توجد بغض وهي تطابق مرحلة معينة من مراحل تطور القوى المادية للإنتاج، وهي التي تحوى، النظر عن إرادتهم وهي الأساس للبناء القانوني والسياسي الذي يعرف بالبناء الفوقي. أي بعبارة ، الكيان الاقتصادي للمجتمع أخرى، يعتبر ماركس الكيان الاقتصادي كقاعدة

أساسية يقوم عليها القانون والسياسة وغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى، لذلك فشكّل الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يقرر الطبيعة العامة للعمليات الروحية والاجتماعية والسياسية في المجتمع، كما تؤكد نظريته أن أي تغير في الأساس الاقتصادي يؤدي إلى تغير في الظواهر الاجتماعية الأخرى، أي أن تغير وسائل الإنتاج يؤدي إلى التغير في الكيان الاجتماعي.⁽⁷⁾

6/ العامل التكنولوجي: يقصد بالعوامل التكنولوجية العوامل التي هي من ابتكار الإنسان، فاكتشاف أية وسيلة من شأنها أن تشبع حاجات الفرد والمجتمع تؤدي إلى إحداث تغيرات

اجتماعية، وتشمل التكنولوجيا الآلات الحديثة والقديمة والمبتكرات التصنيعية والصناعية والمعرفة العلمية المتعلقة بها وبأسرارها وبالمهارات والخبرات المزاولة في نطاقها(8): فالسيارة أحدثت انقلاباً في البيئات الصغيرة والمنعزلة، فيسرت وسائل التبادل، المزاولة في نطاقها ووسعت من دائرة العلاقات الاجتماعية، والهاتف والانترنت وكل وسائل الاتصال الحديثة جعلت من العالم قرية صغيرة فتزاوجت الثقافات، واختلطت الأجناس والقيم، ومن هنا كان لكل ظاهرة من هذه الظواهر انعكاساتها وردود أفعالها على العلاقات الاجتماعية التي يتكون منها البناء الاجتماعي، ومن هنالك تغيرت العلاقات الاجتماعية وتطورت من نمط إلى آخر، حيث شمل التغير كثير من الاتجاهات والتقاليد والمعتقدات، وتحولت أوضاع اجتماعية كانت تعد ظواهر ثابتة وارسخة ولا تقبل التغير أو حتى التعديل.

ويرى شندر أن معظم التغيرات الاجتماعية ليست ناتجة عن التغير في العمل أو في الدولة، ولكن نتيجة للتغيرات التكنولوجية، ويقول أنه باستمرار التغير التكنولوجي يستمر التغير الاجتماعي، والتغير التكنولوجي ليس عاملاً مسؤولاً عن التغير الاجتماعي ولكن هناك عوامل أخرى.

7/ العامل الأيكولوجي أو البيئي : يُركّز أنصار هذا العامل على تأثير البيئة الطبيعية في الظواهر الاجتماعية والسلوك الاجتماعي داخل المجتمع، ويعتبرون العامل البيئي عاملاً حاسماً في إحداث التغير الاجتماعي، كذلك يرى هؤلاء أنّ تأثير المناخ والموقع الجغرافي في تغير الظواهر الاجتماعية أمر حتمي، وأنّ التغير الذي يطرأ على البيئة الجغرافية ينعكس في تغير الظواهر الاجتماعية عموماً. وبذلك يربطون بين قيام الحضارات وتقدمها في مجتمعات دون أخرى وبين عوامل البيئة والمناخ ويأتي في مقدمة هؤلاء العلماء رائد علم الاجتماع العربي ابن خلدون.

8/ العوامل الدينية: وفي هذا العامل شدد عليه المؤرخ الفرنسي "فوسوتيل ري هوولانج" في كتاب (المدينة الحقيقية) ويؤكد "بنيامين كيد" الفيلسوف الإنجليزي ما أشار إليه "كوولانج" من أن الدين هو القوة الوحيدة المؤثرة في التقدم فالدين هو الذي يوحد بين

الأجيال ويحقق التكامل بين المجتمعات وينقذ الحضارة من الأفكار والدين هو الذي يسمح بوجود تقدم اجتماعي وتغير مستمرين⁽⁹⁾

⁹ - محمود عودة، أساليب الإتصال والتغير الاجتماعي، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط2، 1989، ص 146-147